رفاعة الطهطاوي

(١٨٠١-١٨٧٣م=١٢١٦-١٢٩٠هـ)

الأزهري الثائر

obeikandl.com

تقاس عظمة الرجال بقدر ما يحدثونه من تحولات في ظروف وتاريخ مجتمعاتهم. وهذا ما فعله رائد عصر التنوير، الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» الذى حرك مياه الفكر المصرى والعربى الراكدة، وأخرجها من أسر التقليد والتسجيل، إلى رحابة الحركة والتحديث والتفكير في الغد.

عاش «الطهطاوى» [٧٢ عاماً]، أنار خلالها ظلام خمسمائة عام سبقته، ومهد بأفكاره لنهضة علمية وفكرية، وأسس مدرسة تنويرية أمدت الأمة بمفكرين وثوار ومصلحين عظام.

ولد «رفاعة» عام ١٨٠١م-١٢١٦هـ، وهو العام الذى خرجت فيه فلول الحملة الفرنسية من مصر، وكان مولده في «طهطا» إحدى مدن صعيد مصر الصغيرة في محافظة سوهاج.

من طهطا إلى الأزهر:

تلقى «رفاعة الطهطاوى»، علومه الأولى في بلدته «طهطا»، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وحفظ القرآن الكريم، ثم جاء إلى القاهرة، بعد وفاة والده، للدراسة في الأزهر، وباعت والدته بعض حليها وعقارها لتوفر لابنها نفقات دراسته، التي استمرت سبع سنوات، من عام ١٨١٧ إلى ١٨٢٤م. وفي القاهرة يركز رفاعة كل جهده لتحصيل العلم، على أيدى مشايخ الأزهر، وفي مقدمتهم الشيخ حسن العطار، الذى أعجب بهذا التلميذ النجيب، فقربه منه، واستقبله في بيته، وشجعه على محاولة اكتساب المعارف العصرية، التي كان الشيخ العطار مولعاً بها.

وكان رفاعة، بعد أن أتم تعليمه الأزهرى في سن الحادية والعشرين، أصغر وأنبغ من عهد إليهم بالتدريس في تلك الجامعة العريقة.

وعندما فكر «محمد على»، حاكم مصر في ذلك الوقت، في تأصيل الجانب الدينى عند جنود الجيش المصرى، عين في الجيش مجموعة من الوعاظ، كان منهم «رفاعة

الطهطاوى».

إمام البعثة:

كان «رفاعة» في الخامسة والعشرين من عمره، سنة ١٨٢٦م، عندما خاض محمد علي، غمار فكرة ثورية، تمثل نقلة حضارية كبيرة في تاريخ مصر والشرق العربى، بقراره إرسال بعض الشباب إلى باريس ليتلقوا العلم هناك، ثم يعودون لتنتفع بهم بلادهم.

وأراد أن يختار للبعثة إماماً وواعظاً، وطلب من الشيخ «حسن العطار» أن يرشح له أحد علماء الأزهر، فاختار العطار تلميذه «رفاعة» وأوصاه أن يسجل ما يراه في هذه الرحلة في كتاب.

كانت مهمة «رفاعة» أن يؤدى بأعضاء البعثة شرائع الدين، ولم يكن مطلوباً منه أن يدرس أو يتعلم، وكان من أفراد هذه البعثة بعض النابهين من الشباب المصريين، بينهم: محمد أفندى بيومى من دهشور، وأحمد دقلة بك، من بسيون غربية، وأحمد طائل أفندى من بلتان قليوبية مركز طوخ، ومحمد علي البقلى بك من زاوية البقلى في المنوفية، وإبراهيم بك النبراوى من نبروه - دقهلية، وحماد عبد العاطى بك من أبو تيج، وعبد الله بك السيد، من الفيوم، وآخرون.

مع البعثة:

أبحر «رفاعة» مع البعثة إلى باريس، وركب السفينة الحربية «لاترويت» من الإسكندرية، ومن ذلك الحين أصابته دهشة متواصلة مدة ست سنوات، هى سنوات رحلته وإقامته في فرنسا، وسجل يوميات دهشته في كتابه العظيم «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»(*).

كان عليه أن يثبت الدور الحقيقي للتدين والدين في حياة المسلم، وأن يبذل

(*) صلاح عبد الصبور، «قصة الضمير المصرى الحديث»، كتاب الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، ١٩٧٢، ص٢٧.

لذلك، جهداً فوق العادة، فهو لم يكتف أن يكون واعظاً وإماماً للبعثة، وإنما أظهر إرادة قوية ليشبع شوقه إلى العلم، وليكون جديراً بثقة الشيخ العطار به.

لم يكن مجرد رجل جاء ليؤم طلاب البعثة في الصلاة، وإنما تحول إلى إمام لتحصيل العلم والمعرفة، وكان يقضي وقته متنقلا بين غرفة الدرس والمحاضرات ينهل من العلوم كلها، ويتقن الفرنسية، ويتحرى آدابها وفنونها، وكل ما أبدعه الفرنسيون في شتى المجالات.

عاش «رفاعة» في باريس، مفتوح العينين، ومفتوح القلب والعقل والوجدان أيضا، ولم يقنع بأن تحمله قدماه إلى مسارحها ومقاهيها وحدائقها وطرقاتها، بل حمله طموحه إلى لب ثقافتها وعلمها وفكرها. وتنقل بين العلوم التطبيقية والإنسانية، وتأثر بأفكار مونتسكيو وفولتير وجان جاك روسو، الثلاثة الذين شغلوا الناس في القرن الثامن عشر، «عصر العقل الأوروبي».

واستوعب الطهطاوى نظرية «سيادة القانون» التى جاء بها مونتسكيو، ودعت إلى أن يكون لكل أمة دستور يعطى لكل ذى حق حقه، ويفصل فيما قد ينشب بين الأمة وحكامها من نزاع، ويقوم على مبدأ الفصل بين السلطات. وآمن بما نادى به فولتير، بأنه لا حجة ولا حكم إلا للعقل، وألا تخضع إرادتنا وتصرفاتنا إلى الأفكار الجاهزة أو التقاليد المسيطرة.

وأدرك أهمية نظرية «العقد الاجتماعي» التي أتى بها جان جاك روسو. على أن يرعى الحكام مصالح المحكومين، لكي ينهض المجتمع ويتقدم ركب الحياة البشرية.

أكثر من مهمة:

عاد «رفاعة» سنة ١٨٣١م إلى وصنه مصر بعد تلك السنوات الست، من الدهشة، والتعليم، وإعمال الفكر، متنقلاً بين الجغرافيا والتاريخ والفلك والهندسة وغيرها من العلوم الحديثة، والأفكار الثورية الإصلاحية، ليعيد صياغة أشياء كثيرة، وليغير مسار تاريخ أمته.

وظل في حركة دائبة، حتى وفاته عام ١٨٧٣م، ولم يهدأ طوال أربعين عاماً. ولم يكتف بنجاح حققه، بل كانت إرادته تدفعه ليتبع النجاح بالنجاح.

وبلغ محمد علي ما أظهره «رفاعة»، من النباهة والرغبة في العلم من تلقاء نفسه، فسر به سروراً عظيماً، واستبشر بطالعه، وما أن عاد إلى أرض الوطن حتى ولاه مسؤولية الترجمة في المدرسة الطبية التي كان أنشأها سنة ١٨٢٦م في قرية «أبى زعبل» قرب القاهرة برئاسة كلوت بك الفرنساوى، وبمساعى «الطهطاوى» وبمساعدته تم إنشاء أول جريدة عربية في المشرق، وهى جريدة «الوقائع المصرية»، التي مازالت تصدر منذ سنة ١٨٣٢م، وانتقل سنة ١٨٣٢م من المدرسة الطبية في أبى زعبل إلى مدرسة الطوبجية «المدفعية» في طرة، لترجمة الكتب الهندسية والفنون العسكرية، وعندما افتتح «محمد علي» مدرسة الألسن الأجنبية سنة ١٨٣٥م، عهد بإدارتها إلى «رفاعة الطهطاوى»، وكانت تدعى عند فتحها «مدرسة الترجمة»، وأدار الشيخ رفاعة المدرسة باقتدار، واختار لها تلاميذ من سائر جهات القطر المصرى، ثم عُهد إليه بعد ذلك بإدارة المدرسة التجهيزية للطب في الأزبكية مع مدرسة الألسن، ومدارس أخرى فرعية، منها مدرسة للفقه والشريعة، وأخرى للمحاسبة، وأخرى للإدارة والأحكام الإفرنجية.

وتألف «قلم الترجمة» سنة ١٨٤٢م، من أول فرقة تخرجت في مدرسة الألسن، برئاسة رفاعة، وبعد سنة ونصف السنة، نال الطهطاوى رتبة قائم مقام، ثم أميرالاى، فصار يدعى «رفاعة بك»، وكان رفاعة مازال ناظراً لمدرسة الألسن، حتى أغلقت في عهد الخديوى عباس الأول، الذى أمر بإرساله إلى السودان لنظارة مدرسة الخرطوم، وعاد رفاعة إلى القاهرة بعد موت الخديوى عباس، وتولى وكالة مدرسة الحربية، ثم أصبح ناظرها مع نظارة قلم الترجمة، وتولى إدارة جريدة «روضة المدارس»، مع مثابرته على التأليف. وظل قائما بهذه المهام حتى توفاه الله سنة ١٨٧٣م-١٢٩٠هـ(*).

(*) جورجى زيدان، «بناة النهضة العربية»، دار الهلال، القاهرة، ص١٢٨.

تعليم المرأة:

كان «الطهطاوى» رائداً في ميدان التعليم عامة، واهتم بصفة خاصة بتعليم وتربية المرأة، حيث دعا إلى إعادة النظر في كل القيم التقليدية بالنسبة إلى المرأة، وبشر بالحرية والمساواة والإخاء بين الجنسين كوسيلة لتقدم الوطن، ووضع الأساس القوى لتحرير المرأة، وحقها في العلم والعمل، وسبق بذلك دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة، بخمسين عاماً، فقد كان صاحب أول دعوة لتعليم وتربية البنات، وفتح أول مدرسة نسائية، وهى «المدرسة السنية»، ودعا إلى وجوب السماح للمرأة بالعمل، وتحصيل العلم، وكان ذلك موضوع كتابه المهم «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين». وفى ميدان حقوق المرأة، كان الطهطاوى، صاحب رؤية متقدمة على زمانه، فهو أول رجل يتعهد في وثيقة زواجه من كريمة الأنصارى، بأنه لن يتزوج عليها بامرأة أخرى.

الديمقراطى الثورى:

كان رفاعة، إماماً للتجديد، وحاول في كل كتبه أن يحث المسلمين ويدفعهم إلى البحث في العلوم العصرية، وأن يتعلموا الفنون والصنائع المختلفة، التى سبقنا إليها العالم المتقدم، ولا يعنى هذا أنه تخلى عن قيمه ومبادئه، والاهتمام بعلوم الدين.

فقد كان يرى أن هناك نوعين من العلوم: علوم «جوانية» تعنى بالروح الإنسانية، كعلوم الدين والفقه، وعلوم «برانية»، وهى العلوم التي لم تكن تعرفها مصر في ذلك الوقت، وهى علوم تعنى بتجربة الإنسان، وحياته على الأرض، وتيسر له أموره ومسعاه، وتنظم له مسيرته وخطاه، وهى علوم الهندسة والكيمياء والمساحة والطب والفلك والصيدلة، وهى ما حاول رفاعة، الثائر: أزهرى النشأة، أن يستنبتها في تربة مصر.

كان رفاعة الطهطاوى، ديمقراطى التفكير، مؤمناً بأن وظيفة الحاكم هى العمل لمصلحة الشعب، وكان جريئاً في طرح أفكاره، التي تدعو إلى أن يكون هناك دستور

ينظم علاقة الأمة بحكامها، وهو أول من أرسى فكرة الوطن والوطنية خلال حياته العلمية والتعليمية.

أشاد رفاعة بالحرية التي يعيش في ظلها الفرنسيون، وبرر تمتعهم بها، بأن في بلادهم قانوناً مكتوباً يوضح حق الحاكم والمحكوم، ويتراضى عليه الفريقان، وهو الدستور.

وقد بلغ من ولع رفاعة بهذا الدستور، أن ترجم فصوله الرئيسية كاملة في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز». ولم يكتف بذلك، بل عرض للمعارك التي دارت في فرنسا، من أجل الدستور وتعديله، مشيراً إلى ثلاثة أنواع متصارعة من الحكم هي: الملكية المطلقة، والملكية المقيدة، والجمهورية «التي ترد لأول مرة بهذا المعنى في اللغة العربية».

وأشار الطهطاوى إلى قول جان جاك روسو، «بأن الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة، ويجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم»، ووصلت به الاستنارة إلى القول: «إن شريعة الإسلام، التي عليها مدار الحكومة الإسلامية، تشمل الأنواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها».

أهم مؤلفات رفاعة الطهطاوى:

«تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، ويصور فيه رحلته إلى فرنسا.

«التعريفات الشافية لمريد الجغرافية».

«جغرافية ملطبرون».

«قلائد المفاخر في غريب عوائق الأوائل والأواخر».

«المرشد الأمين في تربية البنات والبنين».

«التحفة المكتبية في النحو».

«مواقع الأفلاك في أخبار تليماك».

«مناهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية».

«مختصر معاهد التنصيص».

«المذاهب الأربعة».

«شرح لامية العرب».

«القانون المدنى الإفرنجى».

«توفيق الجليل وتوثيق بنى إسماعيل».

«هندسة ساسير».

«نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز».

«جمال الأجرومية».

obeikandl.com